

تازا حصن الأمير عبد القادر

أ: بكاي محضر

جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم

الملخص:

يعتبر الكشف عن الماضي مساهمة جادة في إحياء التراث المادي الجزائري لما عرفته هذه الأخيرة من فترات تاريخية متباينة شملت كل العهود، وقد ساهم هذا في إثراء الحقل الأثري وأدى إلى ظهور أبحاث ودراسات حوله، لكنها قليلة بالمقارنة مع كل ما تحتويه الجزائر من آثار، ويأتي عملنا هذا في إطار التعرف والتعريف بموقع تازا الأثري-برج الأمير عبد القادر حاليا- الغني بالمعطيات الأثرية والأحداث التاريخية التي تعاقبت عليه، والكل ساهم في تشكيل تسلسل حضاري متنوع ستظهر أهميته مستقبلا في معرفة طبيعة كل الآثار التي يحتويها، وقد ارتأينا هنا أن نبرز جانبا هاما منه والمتمثل في "حصن تازا" الذي أسسه الأمير عبد القادر أثناء مقاومته للإستعمار الفرنسي

Abstract:

Revealing the past is a serious contribution to revive the Algerian tangible heritage, because of what this last lights up on differentiated historical periods included all epochs, and this contributed to enrich the archaeological field and this led

to the appearance of research and studies on it, but it's few comparing to antiquities that Algeria contains, and our work comes in the frame of recognition and identification of the archaeological site of Taza – Bordj Emir Abdelkader actually, rich in archaeological data and historical events that alternated on it, all contributed to the formation of a Various civilized sequence its importance will appear later in knowing the nature of all the antiquities it contains, we have seen here to highlight an important aspect of it which is "The fortress of Taza" founded by Emir Abdelkader while his resistance against French colonialism .

المقدمة:

يعتبر حصن تازا من نماذج المدن العسكرية الريفية - بوغار، سعيدة، سبدو - التي أعاد الأمير عبد القادر تأسيسها بعد قطعة طويلة لها مع التاريخ واستمرت حركتها العمرانية بنشاطها القصير زمنيا، وبالرغم من أنها أقل إنتاجا من المدن الحضرية التي استغلها الأمير على غرار معسكر، تاقدمت، مليانة وتلمسان، فإنها جديرة بالدراسة كونها تعكس النمط العمراني الفعلي في فكر الأمير عبد القادر بعيدا عن القصور العثمانية التي أقام بها، هذا من حيث الفعل التأسيسي للمدينة، أيضا قد خلقت لنا تازا آثارا مادية ثابتة تسمح لنا مستقبلا بالكشف عن الكثير من

المعطيات الأثرية التي تخص الجانب العمراني والمعماري والفني خلال القرن التاسع عشر، وأخرى منقولة مثل اللوحة التأسيسية والمسكوكات والمطحنة... إلخ، تعكس مضامينها مستوى التقنية ومستوى التفكير خلال تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الجزائر الحديث وما ارتبط بتأسيس الدولة، كذلك ما يميزها عن غيرها من باقي الحصون والقلاع والمؤسسات العسكرية التي أنشأها الأمير عبد القادر هو الحفريات الأثرية، لأجل هذه الإعتبارات الثلاثة فإن حصن تازا يسترعي الإلتباه بصورة خاصة والذي كان من أهم حصون الأمير (1838-1841).

لذلك رأينا أنه من الفائدة أن نسلط الضوء على المكانة التي كانت تحتلها مدينة تازا، ولمزيد من توضيح عرضنا هذا نرى أن نبدأ بتقديم لمحة مختصرة عن تاريخ تازا التي شيد على أنقاضها حصن الأمير عبد القادر، وعن الأحداث البارزة قبل تأسيس هذا الأخير لها. وستحدث بعد ذلك تباعا عن استقرار الأمير بهذه المدينة، وأسباب اختيارها، وحالتها عند وصوله إليها، وعن أهم المباني التي شيدت بها تحت قيادته، وأهميتها في ظل مرحلة الأمير، وأخيرا الحملة الفرنسية عليها وتدميرها.

1- تازا قبل وصول الأمير عبد القادر إليها:

تقع مدينة تازا- برج الأمير عبد القادر حاليا- في منحدر جبل الشاون، على بعد حوالي 85 كلم شرق ولاية تيسمسيلت، وهي من المناطق الداخلية التي تربط بين ثلاث ولايات: عين الدفلة وتيسمسيلت والمدينة، وتعد امتدادا شرقيا لسلسلة جبال الونشريس، وتحتل بذلك موقعا استراتيجيا هاما، يقطعها الطريق الوطني رقم 60 الرابط بين قصر البخاري- المدينة- وثنية الأحد. وتعلو عن مستوى سطح البحر بـ 1102م. وأعلى ارتفاع بها يصل إلى

1804م يمثله جبل الشاون شمالا ويقابله جبل أم الروس بـ 1100م¹، وهذان المرتفعان يحصران ربوة واسعة والتي بني عليها حصن تازا وقد نجد تفسيراً لهذه الوضعية الطبيعية في أصل تسمية تازا، والتي تعني الممر بين جبلين.² ومن الجدير بالذكر هنا أيضاً كثرة الأسماء البربرية بها، على سبيل المثال لا الحصر: تيحمامت، تيزيرت، آغبال، وجبل إيشاون الذي يمثل الحصانة الطبيعية للمنوق الأثري تازا كما سيأتي ذكره لاحقاً، وعرف إيشاون عند القدماء بالإسم الأمازيغي غيشاون- وكلمة إيشاون تعني قرون الكباش³ وهي تسمية تتفق مع مرفولوجية الجبل، هذا من الناحية اللغوية أما من الناحية التاريخية فلا ندري في أي سنة أطلق عليها هذا الإسم أمام فقدان الشواهد المادية و ندرة النصوص التاريخية، و لا نميل لافتراضات أخرى و التسليم بها دون التحقيق فيها و إعادة النظر فيما أسست عليه من معطيات فنحن لا نعلم إذا كانت تسمية تازا - TAZA - قد أطلقت على المنطقة منذ نشأتها أم أنها لاعتبارات أخرى جاءت في فترة لاحقة ؟ أم عرفت عدة تسميات ؟ وأول نص تاريخي ورد فيه ذكر تازا قد كان من طرف الرحالة فايست الذي زار المنطقة بعد سقوط حصن الأمير عبد القادر بها بحوالي عشرين سنة، والذي ذكر مايلي: " في أسفل الهضبة التي بنى عليها الأمير عبد القادر حصن تازا وفي مستوى قليل الانحدار بمقربة من الوادي نشاهد آثار المدينة القديمة لتازا التي أسست في سنة 700هـ / 1302م من طرف الأمير جعفر بن عبد الله، وهذا بدليل ما عثر عليه في كتابة تأسيسية نقشّت على لوحة من الحجر، نقرأ عليها مؤسس المدينة وتاريخ تأسيسها المذكورين سابقاً، ونقلت هذه اللوحة إلى ثنية الحد، وبصفة عامة فالآثار الموجودة بهذا الموقع ذات أصل عربي لها طراز مماثل لمعالم مدينة تلمسان غير أنها في حالة مندثرة تماماً"⁴ كما أكد ذلك أيضاً

باتورتي في النص التالي: " كان يوجد بموقع تازا الذي بنى فيه الأمير عبد القادر قلعته مدينة عربية مندثرة تسمى تازا أو تازا (Thaza-Taza) (كذا) والتي أسست منذ ثلاثة قرون خلت (أي القرن 16-17م)...، عثر على لوحة حجرية نقش عليها باللغة العربية كلمة- تازا Thaza- وهي تتوسط شريطا كتابيا يحمل آيات من القرآن".⁵ وأخيرا في تقديمه لبندة جغرافية حول تازا ذكر الباحث الجيولوجي فيشر مايلي: " جزء من منطقة جبلية تقع في سلسلة جبال مطماطة بين ثنية الحد و بوغار يشير إليه بعض الجغرافيين باسم اصطلاحى وهو جبل تازا".⁶ ويقصد به جبل ايشاون- المذكور سابقا، غير أنه لم يقدم لنا مصدر معلوماته حول هؤلاء الجغرافيين الذي اصطلاحوا هذه التسمية على المنطقة، وبدون الولوج في النقاش بين النص الأول والثاني فإن ما نؤكد هنا أن إسم تازا البربري قد ظل مستمرا حتى الفترة الإسلامية بالمنطقة بل وإلى يومنا هذا، ما يؤكد أصالة المنطقة.

و قد هيأت الظروف الطبيعية بمنطقة تازا شروط الإستقرار بها، يشهد على ذلك الكثير من النصوص من بينها ما ذكره إميريت " إن تازا تكثر فيها الغابات، و بها منبع مائي غزير في الجهة الشمالية من الموقع الذي اختاره الأمير لبناء الحصن "⁷ وماورد بين ثنايا رسالة دوماس إلى راباتيل (Rapatel) بتاريخ 14 ماي 1838: "تقع تازا على سفح جبل حصين منحدر، جنوب شرقي معسكر، وعلى بعد يومين منها يجري في سفحه نهر".⁸

ونظرا لكل هذه المعطيات الطبيعية وبحكم انتماء تازا إلى المواقع الممتدة عبر سلسلة الونشريس الزاخرة بمخلفات أثرية تعود إلى فترة ما قبل التاريخ، فقد شهدت استقرارا بشريا وحركة فنية منذ وقت مبكر، ممثلة في صناعات حجرية

ورسومات جدارية عائدة إلى النيوليتيك بمغارة عين العنصر (Ain el Ansser) التي اتخذها إنسان تلك المرحلة ملجأ له، كما أنها قد عرفت استقرار إنسان فترة فجر التاريخ يؤكد ذلك الكثير من المعطيات المادية نذكر من بينها تلك القبور المعروفة باسم البازيناس Bazinas بموقع رأس تازا (Cap de Taza) الذي عثر فيه على هيكل عظمي لإنسان موجه رأسه نحو الشرق، و قطع حجرية يفترض حالياً أنها مخصصة لدفن عظام الأموات بعد حرقها على غرار ما وجد بالعديد من المدن القديمة، أو التيميلوس Tumulus المكتشف بموقع عين أشير (Ain Achir)⁹ (علي خلاصي، 1981: 2-4). وكان موقع تازا الذي سيؤسس الأمير على أنقاضه حصنه عبارة عن عمران روماني كغيره من الحصون والقلاع التي أسسها، يشهد على ذلك الكثير من النصوص والمواقع والشواهد الأثرية، فيما يخص النصوص نذكر ما أورده إيميريت: "تازة حصن مشيد على أنقاض مدينة رومانية تقع في مقاطعة مطماطة على بعد مسيرة يوم واحد من بوغار."¹⁰ وما وصفه باتورني: "حصن تازا بني على أنقاض عمران روماني وهذا الأخير كانت تظهر بعض معالمه التي ردمت بأسس منشآت قلعة الأمير عبد القادر."¹¹ إلى جانب هذا فحصن تازا قد كان مركزاً لمدينة عسكرية رومانية وضواحيه مراكز عسكرية متقدمة، وكونه يقع ضمن حدود الخط الثاني لليمس كما وضحه كورتوا وسلاما، وتحديداً بالقرب من شبكة هامة لموريطانيا القيصرية خاصة الطريق الممتد من بوغار إلى تيارت¹² فقد قام بربروجر بالإشارة إلى أربعة منها: موقع سينالفن Sgnelfen ، عين تازا

Ain Taza وعين الرباط Ain Errabat، أغبال A'ghbal، وملاعب M'lla¹³ وموقع ورأس تازا (Cap de Taza). (علي خلاصي، 1981: 3)¹⁴ يضاف إليهم موقع تيحمامت Tihamamet وعين أشير Ain Achir أين تم العثور بالموقعين الأثرين على 23 قطعة نقدية برونزية رومانية، بقايا لياكل مطاحن حجرية، وعموما كلا الموقعين يؤرخان للمنطقة خلال القرن الثالث والرابع للميلاد¹⁵ وكل المواقع التي أحصيناها أعلاه تقع على حدود الطريق الروماني الممتد بين بوغار مرورا بدراق و قرية أولاد هلال (الخربة) حتى تيارت و فرندة.¹⁶

وفقدت تازا أهميتها بعد نهاية المرحلة الرومانية إلى غاية الوسيطة والتي تستوجب معالجة الظروف العامة والخاصة التي أحاطت بقيامها وعاشت مراحل تواجدها، بل تتطلب أيضا التخمين وقياس ما يتعلق بالموقع نفسه وما نعرفه عن التاريخ العام الذي يحيط بالمنطقة عموما، وإن كنا حاليا نفتقد لشواهد مادية تثبت لنا ذلك، فإن الكثير من النصوص تؤكد لنا استمرار عمراتها خلال الفترة الإسلامية، وسوف نقوم بعرض أهمها تزامنيا على النحو التالي:

استنادا إلى نص لإمرت الذي يقول: "تازا مدينة عربية عتيقة اندثرت فيما يقال نحو سنة (385هـ/996م)" (تقريبا).¹⁷ يتضح لنا أن تازا العائدة لهذه المرحلة التأسيسية الهامة للدولة في المغرب الأوسط قد شهدت حركة عمرانية واجتماعية خلال الحكم الرستمي وحافظت على

استمرارها حتى بعد أفول الرستميين بتاكدمت (296هـ/909م) التي تبعد عن تازا مسيرة يومين، واستمر هذا بحوالي سبعة وثمانون سنة من بعد ذلك، وهي مدة زمنية تسمح بإنشاء العمران وتوسعه واستمرار بنيته الاجتماعية في فضاء المغرب الأوسط. وفي رحلته يقدم فايست وصفا آخرًا لتازا التي عاينها سنة 1860، نؤكد من خلاله على مرحلة تاريخية ثانية للمنطقة، وتعود إلى بداية القرن الثامن الميلادي ويقول: "في أسفل الهضبة التي بنى عليها الأمير عبد القادر حصن تازا وفي مستوى قليل الانحدار بمقربة من الوادي نشاهد آثار المدينة القديمة لتازا التي أسست في سنة 700هـ/1302م من طرف الأمير جعفر بن عبد الله، يشهد على ذلك كتابة تأسيسية نقشت على لوحة من الحجر نقرأ عليها مؤسس المدينة وتاريخ تأسيسها المذكورين سابقا، ونقلت هذه اللوحة إلى ثنية الحد، وبصفة عامة فالآثار الموجودة بهذا الموقع ذات أصل عربي لها طراز مماثل لمعالم مدينة تلمسان غير أنها في حالة مندثرة تماما".¹⁸

ودون ذكر لأسماء الباحثين ولا سنة زيارتهم، يورد باتورني نصا بالغ الأهمية نعتبره حدثا تاريخيا هاما واستمرارا عمرانيا من جهة، وقراءة طبقية لموقع تازا من جهة ثانية: "كان يوجد بموقع تازا الذي بنى فيه الأمير قلعته مدينة عربية مندثرة تسمى تازا أو تازا (Thaza-Taza) (كذا) والتي أسست منذ ثلاثة قرون خلت (أي القرن 16-17م) من طرف شيخ يدعى الحاجي الشاوي وغير بعيد من هذه الأخيرة عشر على لوحة

حجرية نقش عليها باللغة العربية كلمة - تازا - Thaza وهي تتوسط شريطا كتابيا يحمل آيات من القرآن " ¹⁹ . (Fernand Patorni, 1889:67)، نشير في هذا الصدد أن التاريخ المذكور يؤدي إلى تأريخ الأحداث في القرن 16م بدليل أن المتحدث نطق هذا القول في القرن 19 وبالتالي فهذه طريقة للإدلاء عن حدث تاريخي نسبي التأريخ، أما عن الآيات القرآنية فلم يصلنا عنها شيء حتى نتمكن من خلاله تحديد انتمائها لفترة حكم معينة، و بدخول العثمانيين أصبحت تازا تابعة إداريا إلى أغاليك جندل (Aghalik Djendel). ²⁰

تلك هي أهم الأحداث التي نسج حولها التسلسل التاريخي والإستمرار العمراني لمنطقة تازا بصفة عامة، والتي لم تتضح أوضاعها أو ترسم ملامحها إلا خلال القرن 19م أثناء فترة الأمير عبد القادر.

2- إستقرار الأمير بتازا وأسباب تأسيسها:

الإستقرار بتازا:

وصل الأمير إلى تازا في منتصف سنة 1838م/1255هـ ، ولدينا عدة وثائق ومستندات هامة بشأن استقراره بها، وأقدمها رسائل قنصل معسكر دوماس إلى راباتيل بتاريخ 14 ماي 1838. وبالعودة إلى تاريخ هذا التقرير نلاحظ أن دوماس قد كان علم مسبق بذلك وبأكثر من نصف شهر قبل التأسيس، ومع ذلك فقد اكتفى فقط في رسالته السابقة بقوله: " تقع تازا على سفح جبل حصين منحدر جنوب شرقي

معسكر، وعلى بعد يومين منها يجري في سفحه نهر. "وبعد شهر تقريبا (9 جويلية 1841) من تاريخ تأسيس حصن تازا يفيدنا بمعطى يخص علاقة قبائل المنطقة بالأمير ويقول: "مطماطة وبلال قد سارعا في الاتصال بالأمير ومساعدته بالمواشي والأبقار وبعض المواد الغذائية ومولاه بمائة فارس ومائة وخمسين بندقية".²¹

الجدير بالذكر هنا أن النصوص تتفق جميعها بأن الأمير قد أسس تازا شهر جوان 1838، من بينها ما أشار إليه اميرت وأكدته وزارة الحربية الفرنسية كمايلي: "أسست تازا في شهر جوان من سنة 1838 من طرف الخليفة ابن علال"، وكتب اسكوت هو كذلك: "يقع حصن تازا عند منتصف الطريق من بوغار إلى ثنية الحد، أنشأه الأمير في منتصف سنة 1838. وكان الخليفة ابن علال هو الذي كلف بالإشراف على عمليات التشييد بتازا"²²، وجعله ضمن مقاطعة مليانة تحت قيادة الخليفة محمد بن علال، وبهذا فقد أصبحت حدود هذه المقاطعة تمتد من وادي شفة شرقا إلى وادي الفضة غربا، ومن شرشال شمالا إلى تازا جنوبا. وبالعودة إلى اللوحة التأسيسية التي عايناها بفرنسا، فإن تاريخ التأسيس هو 1255هـ/1838م.²³

لقد وجد الأمير موقع تازا عندما نزل بها أنقاضا رومانية قديمة، مما يجعلنا نتحدث عن إعادة الاستغلال، ونقصد - الليمس - ولو أن الفعل السياسي مرتبط في هذه الحالة بالفعل العمراني فيتضح من خلاله أن

هذا الحصن هو من نوع المدن القائمة على أنقاض عمران قديم، أشار فالي إلى ذلك في مراسلة لوزارة الحرية بتاريخ 19 أوت 1840: "إن حصن تازا الذي أنشأه الأمير عبد القادر بني على أنقاض مدينة رومانية قديمة"²⁴. وعليه فإن الأمير قد بادر بإرسال العمال والجنود من أجل عملية رفع الأنقاض الباقية إما بغرض نزعها أو تسويتها أو استغلالها فيما يراه مناسباً لتعمير هذا المكان الواسع والمهجور ووضع الأسس لعمران جديد بعد تهيئة الموقع، وكلف محمد بن علال خليفة مليانة بالإشراف على عمليات البناء والتعمير بتازا، وقد انفرد باتورني بتحديد قيمة التكاليف المالية لذلك ويقول: "مدينة تازا وقلعتها كلفت الأمير عبد القادر أربعمئة ألف فرنك فرنسي"²⁵. ولنا أن نقدر مبلغ ما كلف الأمير مقارنة مع المسافة البعيدة للحصول على المواد الأولية للمباني والمنشآت والمواد الخام للصناعة وكذا تكاليف العمل وأجور العمال ووضع أسس الحصن الذي يعد حدثاً عمرانياً بارزاً، كونه يطلعنا على نمط جديد من المدن الريفية التي أنشأها الأمير، وإن كانت معالم التخطيط المادي لهذا الحصن مرتبطة أساساً بالجانب العسكري واقتصاد الحرب بالدرجة الأولى.

أسباب تأسيسها:

لنا فيما يتعلق بالأسباب التي دفعت الأمير إلى اختيار تازا خصوصاً تاريخية كثيرة من بينها نص: دوماس، إيميريت، آزان، ماصو، فالي، اسكوت ووزارة الحرب وسنوردهم تزامنياً كما يلي:

أقدم هذه الوثائق ما تركه لنا دوماس في رسالة إلى راباتيل بتاريخ 14 ماي 1838: "تقع تازا على سفح جبل حصين منحدر، جنوب شرقي معسكر، وعلى بعد يومين منها، يجري في سفحه نهر". وبعد ستة أيام من ذلك (20 ماي 1838) يرسل لنفس الجنرال بمعلومات تحيلنا إلى فهم التركيبة الاجتماعية لتازا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بين الوافد من المدينة والأصلي من الريف: "الأمير خطط لبناء حصن بمنطقة تازا من أجل إسكان الأهالي العرب الذين غادروا مدينة الجزائر والبلدية بعد احتلال الجيش الفرنسي لهاتين المدينتين"²⁶ وفي أخرى لنفس الجنرال في 10 جوان 1839: "توجه بعض من سكان مليانة لاجئين إلى تازا". و بالرجوع إلى مراسلة دوماس المذكورة أعلاه والمؤرخة في 9 جويلية 1841 بصدد حديثه عن السكان الأصليين لتازا، فإن قبيلتي مطماطة وبلال قد قاما بدعم الأمير عبد القادر بـ 100 فارس و 150 بندقية وبالمواشي والأبقار ومختلف المواد الغذائية". يقدم لنا دوماس أيضا معطيات ذات خلفية إقتصادية قد تم على أساسها اختيار موقع تازا، في رسالة بتاريخ 06 ماي 1839 إلى غيهنيك حول أول مصنع: "إن الأمير عبد القادر أنشأ مصنعا للكبريت بتازا. وتم ذلك بعد اكتشاف منجمه على مقربة من القلعة، وإن هذا المنجم المكتشف بتازا في تمام نشاطه، وأنه قد أرسلت عينات رائعة منه إلى معسكر".²⁷ وأن هذا المنجم يناسب حسب الراجح منجمي الكبريت والمقام الواقعين على بعد خمسة عشر

كيلومتر تقريبا جنوب شرقي تازا، وعلى نحو أربعين كلم من بوغار، و

يشار إليه في خريطة المعادن باسم سيدي بوزيد " .²⁸

وكتب إيمريث من جهته معطيات تخص جوانب عدة ،أما الأول فهو

إستراتيجي: "تقع في مقاطعة مطماطة على بعد مسيرة يوم واحد من بوغار، ومسيرة يوم

ونصف من مليانة، تازا بمثابة مستودع بالنسبة إلى مليانة." ²⁹.... "الفرنسيين كانوا في تازة، غير

بعيدة عن تاكدمت إلا بنحو مسيرة يوم ونصف، والطريق من تازا إلى تاكدمت جميلة والماء

بها وفير." وفي موضع آخر يذكر: "تقع تازا وسط جبال في أرض ذات أشجار وافرة ومياه

وفيرة، يوجد بها حصن متين البنيان ولكنه غير متموقع كما يجب، وشكله مستطيل تحميه أربع

قطع مدفعية من عيار 6 و 8، ويمكن أن يكون عرضة للقصف لأنه على مرمى جيد من

أعلى. وفيما يخص الثاني فمرتبط بمعلومات سوسيو-دينية تعكس سياسة التوجه من محور

المدن الحواضر (الجزائر-البليدة ومليانة) إلى محور المدينة الريفية الجديدة تازا وقد تمثلت في

تهجير المسلمين من دار الكفر التي احتلتها أقدام المسيحية إلى دار الإسلام التي أسسها

الأمير، ويقول: "حصن تازا أعد لسكان مليانة للجوء إليه في حالة اقتراب

الفرنسيين..." ويضيف: " منذ أمد بعيد، والأمير يبذل قصارى جهده لكسب موالة سكان

العاصمة، ومن أجل ذلك كتب إليهم يحثهم على مغادرة البلاد التي يسكنها الكفار واعد

إياهم بالأمان في حضرته، وقد وضع تحت تصرفهم عددا من البغال لنقل أمتعتهم، وقد لى

النداء عدد من العائلات ،فغادرت العاصمة متجهة نحو مليانة، ومن هناك وبأمر منه نقلوا إلى

تازا ومنح لكل منها كمية من القمح و كبش وعشر فرنكات وكوخ كان قد أعد

مسبقا، ولكن بعد نفاذ مؤونتهم قطع الأمير عنهم المعونة، سرعان ما اضطروا هناك إلى العمل

من أجل الاسترزاق، وهكذا تشكلت في مصانع و ورشات تازا نظام الإجارة". وبالتالي نجد هنا تفسيراً للمعطى الاجتماعي ذو الخلفية الدينية وانعكاسه على تشكيل نواة اقتصادية بالمنطقة، كما أشار إيميريت إلى التحول الاجتماعي الذي حدث بوصول عائلات أخرى: "لجأت بعض عائلات الكراغلة والميزابين إلى تازا".³⁰ يعني أن تازا قد شهدت تغيرات اجتماعية خلال القرن التاسع بسبب المنعرج التاريخي الذي حدث خلال مقاومة الأمير بداية من تأسيسها مباشرة.

ورد في التقرير الذي بعث به ماصو المساعد في إدارة التموين العسكري إلى رئيس مجلس الوزراء ووزير الحرب سنة 1841 معطيات جديدة: "إن موقع تازا الذي اختاره الأمير يتوفر على منبع مياه غزير، يأتيه الماء كذلك عبر الوادي من جبل موجود شمال شرق المنطقة"، ويشير بشكل مختصر جدا إلى معلومات سوسيوقافية بدأت تتشكل نواتها نتيجة التركيبة السوسولوجية (مليانة-المدية-الجزائر-البليدة مع المحليين أعلاه) التي تراكمت بالمنطقة مكملا بذلك ما أورده إيميريت ويقول: "الأهالي الموجودون بهذه البيوت الخشبية -القرابي- (كذا) هم لاجئون من مدينة الجزائر العاصمة والمدية ومليانة، ومع مرور الوقت فإن هؤلاء الوافدين إلى تازا أصبحوا خاضعين لميثاق وعادات تبادلوها هناك".³¹ إلى جانب وصف دوماس لتازا بين 1838 و 1839، وماصو سنة 1841 فقد صوروا وأبانا لنا عن مراحل بناء الحصن، فقد ورد من فالي إلى وزارة الحربية إنشاء الأمير لمخازن ومستودعات، منها ماهو للخبرة ومنها ماهو للمؤونة.³² وبالتالي فهو يطلعنا على التحول الذي حدث في المنطقة بالانتقال من الاجتماعي إلى الاقتصادي والثقافي المذكور آنفا، إلى الإستراتيجي على خلفية حصانتها الطبيعية مؤكداً مقالته إيميريت حول جعل تازا مستودعا هاما لعاصمة المقاطعة

مليانة، كما سيأتي ذكره لاحقاً. روى اسكوت في مذكرته: "إن هاربا فرنسيا يعمل مع المهندس ألكسي دو كاس كان يحمل رسالة تفيد بأن كميات كبيرة من معدن الرصاص موجودة في الجبال التي تمتد جنوب شرق تازا...، كما يكثر فيها ملح البارود، وقد احضر لي هذا الرجل حجرا ثمينا أخذه من محجر يقع غير بعيد من تازا، وأنا مقتنع بأن هذا الحجر الجميل يستحق الاستخراج والاستغلال التجاري".³³

وأخيرا يشير فايست إلى مؤشرات جغرافية قد هيأت للأمير بناء الحصن ويقول: "على بعد 08 كلم، شمال شرق بوغار، يوجد حصن تازا الذي تحيط به منحدرات صعبة ووعرة المسالك من الشمال الشرقي والغربي، أما الناحية المقابلة فهي هضاب، وبين هذا وذاك يوجد سهل واسع وخصب بنيت فيه قلعة تقترب إلى الشمال أكثر منه إلى الجنوب في أسفل جبل الشاون الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر بـ 1804م، وهذا الموقع الذي اختاره الأمير مسيطر تماما على المنطقة ولا يوجد اختيار أفضل منه، ويتوفر على منبع مائي يقع عند نهاية الجبل المذكور آنفا".³⁴

3- المباني الرئيسية التي شيدت بتازا خلال فترة الأمير عبد القادر:

توفرت عندنا الكثير من الوثائق الهامة كنا قد جمعناها من مكتبة فانسان والأرشيف الوطني ببباريس وغيرها بشأن المباني التي شيدت، وأقدمها ما تركه لنا دوماس خلال منتصف سنة 1838، مروراً بسنوات 1839-1840 أو مرحلة التوسع من خلال نص واستي وإميريت وبيجو و أزان وماصو و فالي إلى غاية مرحلة الإندثار وما بعدها بداية من نص اسكوت سنة 1841 حتى رحلة فايست سنة 1860، أي بعد اندثار الحصن بحوالي عشرين

سنة في انتظار خمس وعشرين عاما أخرى لتتحول معالم المدينة إلى طراز العمارة الكولونيالية بداية من سنة 1885 والكل يعطينا نظرة عامة حول تلك المباني والمنشآت.

أمّا فيما يتعلق بالجانب الهندسي العام للحصن فقد كتب واستي رسالة في 30 جوان 1840 م إلى وزارة الحربية ملاحظات ميدانية توحى بزيارته للمنطقة أو أخذها من شخص عاين الموقع عن كثب، وكان ذلك بعد مرور سنتين من التأسيس: "قلعة تازا مربعة الشكل، ذات طابقين، تتخللها فتحات أو شرفات، تحيط بها في الأركان الأربعة أبراج صغيرة مسننة، خصصت غرفتان بها للأمير، إحدهما كان يستعملها للنوم والثانية للصلاة، وأخرى بها موقد وكانت مخصصة لرئيس الخزينة المالية، وهناك غرف عديدة تتسع لحوالي 3000 شخص، أسوارها مغطاة بطبقة من الجص الجيد، مزينة بدرابازينات حديدية ملونة بالأخضر".³⁵ إلى جانب هذه المعطيات الهندسية والوظيفية والفنية يضيف بيجو: "قلعة تازا مربعة الشكل، يتم الدخول إليها عبر باب واحد يبلغ سمكه المتر والنصف، ويصل ارتفاعه إلى حوالي ستة أو سبعة أمتار، مع نحو ستين متراً في كل واجهة و في زوايا القلعة أبراج، وفي وسطها حامية جنود تحيط بها مستودعات و مخازن تقوم على أقبية واسعة، استعمل في بنائها خليط غير متناسق من الحجارة والرمل وكمية قليلة من الجير".³⁶ ثم يأتي آزان مشيراً إلى مبان إضافية، ويعود هذا ربما إلى أن وصف آزان جاء في مرحلة متقدمة من التوسع العمراني للحصن: "قلعة تازا مربعة الشكل ولها طابقان، تتخللها فتحات (مزاغل) تحيط بها أبراج مسننة في الأركان يأوي إليها الجنود النظاميون، وهي محصنة بأربع قطع مدفعية من عيار 6 و8، وثلاثة مدافع بدون ركيزة، اثنين منها تركها الفرنسيون في المدينة، كما نقل إليها الأمير ثلاث مدافع بدون ركيزة".³⁷

الجدير بالملاحظة هنا أن كل من واسي و ماصو وآزان يؤكدون على الشكل المربع للحصن (40X40م): "مقاسات قلعة تازا هي أربعون مترا في كل واجهة"، غير أن بيجو يحدد مقاساته بـ (60 X 60). ويعود سبب الاختلاف ربما للفترة الزمنية التي وصف فيها كل منهم للحصن، أو لأن المقصود في نصوص كل من آزان و ماصو و واسي هو مقاسات القلعة فقط وليس الحصن ككل. إلى جانب الوصف المقدم أعلاه بين سنتي 1838 و 1841 يصفه فايست سنة 1860: "قلعة تازا لها شكل معين طوله 60م و عرضه 25م، محاطة بسور خارجي يبعد عن السور الداخلي بـ 4م، توجد بها مجموعة من الغرف الصغيرة الحجم والمخايي تحيط بفناء قسم إلى قسمين بواسطة عمارات متراصة جعلت خصيصاً للأمير وخلفائه. كما كانت توجد بداخلها منصة حجرية كان يستعملها الأمير كمقعد يجلس عليها ليحكم بين الناس في مختلف القضايا".³⁸ ولا نعلم مصدر المعلومات التي استقى منها فايست المعطيات أعلاه بالنظر إلى طول المدة الزمنية التي سمحت له بوصف الحصن وكأنه قائم بذاته. وبعيدا عن القلعة، كانت تتوزع نحو ثلاثين مسكنا من الخشب وخمسين من الحجر والطوب منذ أن أسست في جوان 1838 إلى غاية 1840م حسب ما ذكره آزان بقوله عن النوع الثاني من المباني (50 مسكنا) الذي يبدو أنه أحسن من الأول: "الوجه الداخلي لمنازل حصن تازا الخاص بعامّة الناس كان مخصصا." (Paul Azan, 1898 :171) بالإضافة إلى هذه المساكن فقد كان يوجد بتازا في عهد الأمير طرق وشوارع واسعة³⁹ أكدها كل من ماصو وآزان، ويتفق كل من باتورني و لاكروا على القول بأن تازا كانت بها إلى جانب ثمانين مسكن وشوارع وطرق واسعة ومحلات تجارية، غير أن الأول حدد موضعها بداخل الحصن ويقول: "حتى أن إحدى المحلات التجارية الداخلية بحصن تازا أخذت اسم قصر

السلطان، حيث احتوت على زخارف وأثاث راق للتأكيد على مكانتها.⁴⁰ والثاني دون تحديد موضع لها مشيراً فقط إلى دورها و باختصار: "إن تازا كانت ذات أهمية قصوى للأمير عبد القادر، لا لقلعتها الحصينة فحسب بل لما تنطوي عليه من محلات تجارية".⁴¹ ويبدو لنا أن هذه المحلات كان يشغل فيها السكان الوافدين إلى تازا باعتبار صفة التجارة والحرف لأهل الحضر، وربما كانوا يشتغلون أيضاً في المعامل والورشات التي ستتطرق إليها لاحقاً، وما يهمنا حالياً من هذه النصوص هو أن التنوع في التركيبة الاجتماعية بمنطقة تازا كان له أثر فعال في إنشاء نشاط تجاري وبداية لإرساء نواة مدينة في طابعها العسكري.

تتفق جميع النصوص على القول بأن تازا كانت مدينة عسكرية يتوفر لها معمل للأسلحة، الكبريت وأفران لصنع الخبز ومطحنة للحبوب⁴²، البنادق، الجلد، الدباغة والجلوخ،⁴³ ومعامل أخرى للحرير⁴⁴ وقد اعتمد على خبرة عالم المناجم ألكايي دو كاس والذي يذكر ماصو في شأنه مايلي: "إن ألكايي دو كاس يعرف منطقة تازا جيداً من ناحية ثرواتها المعدنية و المنجمية، وهو الوحيد الذي اعتمد عليه الأمير عبد القادر لإنشاء وتشغيل مصانعه بها"، وقد ورد اسمه وتحركاته داخل محور مليانة تازا في الكثير من الرسائل، من بينها ما ذكره غارسان: "لقد تم نقل عالم المناجم دو كاز من مليانة إلى تازا أين يقيم تحت رقابة شديدة".⁴⁵، و اسكوت كما سبق وأن أشرنا إليه.

وبخصوص هذه المنشآت التي تم بناؤها فقد ورد في رسالة من دوماس إلى غيهنيك في 10 مارس 1839 "أنشأ الأمير بتازا أفراناً لصنع الخبز ومطحنة للحبوب".⁴⁶ ومن ذلك أيضاً يقدم لنا دوماس صورة عن أول معمل بناه الأمير من خلال أربعة رسائل بين منتصف عام 1839 و 1840، أخبر في رسالة إلى غيهنيك في 06 ماي 1839، أن الأمير أنشأ

مصنعا للكبريت بتازا، وتم ذلك بعد اكتشاف منجمه على مقربة من القلعة، وإن هذا المنجم المكتشف بتازا في تمام نشاطه، وأنه قد أرسلت عينات رائعة منه إلى معسكر. "وقد علق على ذلك ايفر في المذكرة التي رافقت الرسالة كما أوردناه سابقا. وكتب دوماس بعد ثمانية أيام إلى راباتيل "إن الأمير بنى بتازا مطحنة تسير بالماء".⁴⁷ ويخبرنا ماصو على استمرار مصنع الكبريت بتازا في إنتاجه إلى غاية سنة 1840م عندما أعطى الأمير أمرا بتحويل مستودع الكبريت وذخيرة حرب أخرى التي كانت موجودة بتازا ونقلها إلى تاقدمت".⁴⁸

الجدير بالذكر هنا أن دوماس قد ذكر وجود مطحنتين، الأولى للحبوب والثانية للماء، ونفس المعطى أورده الضابط نورج (G Nourge, 1967 : 146-147)⁴⁹ وأزان، الذي وصف ذلك بالعبرة التالية: "مربلعة تازا مياه جارية تسير بها طاحونتان".⁵⁰ بالموازاة مع هذا فإن كل من اسكوت.⁵¹ و إيميريت: "يوجد بتازا فرن للخبز، وطاحونة دقيق".⁵² و ماصو الذي أوضح ذلك في الملاحظات التي صاحبت التقرير مايلي: "إن موقع تازا الذي اختاره الأمير يتوفر على منبع مياه غزير، يأتيه الماء كذلك عبر الوادي من جبل موجود شمال شرق المنطقة، ويبعد المنبع عن مطحنة الجير التي أنشأها الأمير عبد القادر بمائتي خطوة، في حين تقدر المسافة الفاصلة بينه وبين القلعة بحوالي عشر دقائق، ويمر بالقرب من المساكن عبر قنوات صرف لتزويدها بالمياه الصالحة بالشرب، ويقوم أيضا بتزويد الطاحونة لأداء وظائفها".⁵³ (Paul Fournier, 1967 : 146-147)، غير أن وصف فايسيت يعبر عن وجود مرحلتين تاريخيتين هامتين بموقع تازا و يقول: "تقع مطحنة الحبوب التي بناها الأمير عبد القادر بن محي الدين في الجهة الغربية أسفل الهضبة التي بنيت عليها القلعة، وقد كان الماء يأتيها من الناحية الشمالية الشرقية وعلى بعد خمسين متر من المنبع المائي، و يضيف

قائلا: "يوجد بالموقع مطحنة أخرى غير التي أنشأها الأمير بن محي الدين، وتعود هذه الأخيرة إلى سنة 700هـ وهي تقع على مسافة بعيدة من المطحنة الأولى".⁵⁴ وربما تكون هي نفسها التي ذكرها ماصو، ونشير هنا إلى أن فايست يكون قد قرأ كتابة منقوشة على هذه المطحنة سمحت له بتأريخها، أو لديه وثائق حول المنطقة أو بحكم اهتمامه بالآثار أو بالإعتماد على خبرة أشخاص معه.

وبدون أي اهتمام يذكر باقي المصانع والمعامل التي شيدت بتازا ماعدا إحصائها: مصنع للأسلحة وثاني للبنادق وثالث للجلد ورابع للدباغة وخامس للجوخ وسادس للكبريت وسابع لأفران الخبز وثامن لمطحنة للحبوب وتاسع لمطحنة للجير، فإننا نؤكد من خلالها وجود نوعين من المصانع والمعامل بتازا، الأول خاص بإنتاج الأسلحة وصناعة البارود والثاني للمنسوجات التي تدخل في عدة الجيش، كما نؤكد هنا أيضا على نفس المعطى فيما يخص المعادن والمناجم التي اكتشفت بتازا ، فقد اكتفوا فقط بتعدادها ماعدا منجم الكبريت الذي تم تحديده افتراضيا في خريطة المعادن كما سبق وأن أشار اليه ايفر، أو تلك المناجم في فضاء تازا والتي ذكرها اسكوت آنفا.

وفيها أقام الأمير مستودعاته ومخازنه ، و قد أحصاها كل من غارسان وفالي و جوليان وواسي، يذكر الأول: " يوجد في حصن تازا مستودع للقمح والحديد والنحاس والرصاص والكبريت والبنادق، وجزء من العتاد المتقدم من باريس" وفي موضع آخر يذكر: " كان الحديد اللازم يستجلب إلى حصن تازا من منجم بجوار مليانة، حيث أن الاحتياط من إنتاج هذا الأخير كان ينقل إلى مخازن الجيش في تازا ".⁵⁵

يقسم فالي تلك المستودعات إلى نوعين اثنين في رسالة إلى وزارة الحربية في 25 ماي 1839: "أنشأ الأمير بحصن تازا مجموعة من المخازن خصص البعض منها للذخيرة والبعض الآخر للمؤونة".⁵⁶ و يبرز جوليان أهميتها بقوله: "إن تازا تعتبر من المطامير العامة أو مخازن الدولة الهامة في عهد الأمير عبد القادر".⁵⁷ و يؤكد واسي بأن "تازا تعد مستودعا حريبا بالغ الأهمية".⁵⁸، وهذا يعني أن الأمير قد أنشأ بتازا نوعين من المستودعات أو المخازن، الأول يتمثل في مخازن الأسلحة والعتاد والذخيرة، والثاني في شكل مطامير للمؤونة والحبوب، غير أننا لا نعلم إن كان النوع الأول من المستودعات في شكل سراديب تحت الأرض أم فوقها، غير أننا نرجح بأنها كانت داخل الحصن كضرورة للحفاظ على هذه المعدات الهامة.

وفيها أيضا يسجن الأمير أسراه، وقد أشار إلى ذلك فورنيي عن ماصو وكليمن (Clemend) بقولهما الآتي: "قلعة تازا محاطة بأسوار مرتفعة وضخمة، كانت توجد بها دهاليز استعملت كسجن للأسرى الأوروبيين، كان يقوم بحراستهم بعض أهالي القبائل هناك".⁵⁹ ويذكر دوماس إلى غيهنيك في 22 سبتمبر 1839: "عدد كبير من المعتقلين السياسيين قد فروا من تازا و تاقدمت".⁶⁰ وكذلك لاكروا: "كان يحبس الأمير أسراه الفرنسيين في تازا منذ أن أصدر الأوامر بضممان حياتهم".⁶¹ كما أشار تشرشل إلى ذلك: "المساجين كانوا يرسلون إلى مراكز معينة مخصصة لاستقبال الأسرى و لقد كانت العادة أن يرسل الرجال إلى تازا و تاقدمت، أما النساء فقد كن بلا استثناء يرسلن إلى الزمالة، حيث تعني هن وتراقبهن والددة الأمير".⁶² " وأخيرا يطلعنا اسكوت على ذلك ويقول: "إن معسكرات الأسرى الكبيرة تقع في تاقدمت وتازا، والجدير بالذكر أن عدد الأسرى الذين يحتفظ بهم الأمير في تازا وحدها حتى يوم 28 جوان 1838 يبلغ 185 سجينا أخذوا كلهم في 22 سبتمبر 1839⁶³، وأضاف فايست مبني هاما يصفه كمايلي: "يقع

الإسطنبول في أسفل الهضبة التي بنيت عليها قلعة تازا، وتحديدًا في الجهة الغربية منها وهو قريب من المطحنة التي بناها ابن محي الدين، وقد كان لهذا الإسطنبول طابع هندسي إنجليزي استغله الأمير كمأوى للخيل والدواب.⁶⁴

4- الحملة الفرنسية على تازا وتدميرها:

يفيدنا فالي الذي كلف بالإعداد لمشروع التخطيط بهدف تدمير منشآت ومباني الأمير بتازا في عدة رسائل لوزارة الحربية، نذكر من بينها واحدة بتاريخ 25 فيفري 1839، وهذا نص ما جاء فيها: "إن الأمير عبد القادر جمع في قلعة تازا كنزه و أدوات مؤنثه وذخيرة حربية".⁶⁵ وفي أخرى بتاريخ 6 جويلية 1839 يذكر بأن الأمير يخشى في حصن تازا جزءاً مما يملك.⁶⁶ وفي معرض مخططة التدمير الوارد في 19 أوت 1840 حول تنفيذ حملتين عسكريتين، الأولى خلال فصل الخريف والثانية في الربيع، ففي مقاطعة المدية ورد فيه تدمير منشآت جيش الأمير في تازا. وفي مشروع آخر بعثه بتاريخ 31 ديسمبر 1840، وحسب الخطة الهجومية الثالثة للمشروع أثناء حملة الربيع فقد عقد العزم مع كبار ضباطه على تدميرها وجاء في إحدى بنود مخطط بعنوان "مقاطعة تطري وواد الشلف" تدمير جميع منشآت الأمير في كل من بوغار و تازا.⁶⁷ وبقي الأمر مجرد مشروع، إلى غاية عودة بيجو للجزائر، وكانت تازا مستهدفة في مشروعه ضمن أربعة مخططات، ثلاثة منها لفرقة مشاة الخطوط (الفرقة 53، 24 و 17) وواحدة في فرقة الفرسان الإفريقيين (الفرقة 4 و 1) تحت قيادة الجنرال براغوي ديليي.

وتطبيقاً للمشروع العام لبيجو انطلقت إحدى كتائبه بقيادة الجنرال براغوي ديليي من مركزها بالبليدة اتجاه جنوب المدية، فوصلت قوات هذا الأخير إلى تازا وقامت بتدميرها في 25 ماي 1841، على الساعة الواحدة بعد الزوال⁶⁸، في وقت كان الأمير قد أصدر أمراً لجيشه بحصن تازا بالخروج منها عند اقتراب العدو، ويعلق لا كروا على هذا الحدث بمايلي: "إن هذا القرار الغريب الذي أمر به الأمير يندرج في نطاق الخطة الدفاعية الجديدة التي تبناها، فعندما تأكد من عجزه عن مقاومة العدو بالسلاح رسم مشروعاً يقضي بإغهاكه عن طريق الجوع و بذل الجهود دون جدوى".⁶⁹ ويذكر أيضاً بأن قوات براغوي ديليي لم تواجه أية مقاومة تذكر أثناء احتلالها لتازا، بل شاهدوا أعمدة عالية من الدخان تتصاعد من القلعة التي أحرقتها سكانها عند الانسحاب منها، فسقطت منشآت الحصن بدون صعوبة في أيدي هذا الجنرال.⁷⁰ ويشير غارسان إلى قرار كان قد اتخذته الأمير قبيل وصول الإستعمار ويقول: "ولعل هذا المكان (تازا) اليوم مقفر بعد أن نقل كل شيء إلى تاكدمت".⁷¹ وفي نفس الإطار يصف اسكوت تازا في ذلك اليوم الحزين الذي حضر فيه حتى ابن الملك الفرنسي لوي فيليب الأول إلى تازا "مدينة تازا أيضاً دخلها الفرنسيون يوم 25 ماي وهي مثل تاكدمت تحولت إلى يباب بلقع بناءً على أوامر السلطان (كذا) عبد القادر، وتبعاً لذلك فإن الجنرال والدوق دومال لم

يجدا أحدا في المدينة ليرحب بمقدمهما، وإنما وجدا بدلا من ذلك أعمدة الدخان تتصاعد و أكوام الرماد و لذلك فقد عجلا بالجلاء عنها وتراجع جيشهما في اتجاه مليانة يوم 27 ماي 1841م".⁷²

وأخيرا يصف آزان حصن تازا بعد يوم من اندثاره: "و في صباح يوم 26 ماي لم يبق من الحصن لا القلعة ولا قناة المياه ولا معمل الدباغة أو مصنع القماش، ماعدا اللوحة التأسيسية المصنوعة من الرخام التي كانت مثبتة تحت مدخل باب الحصن، احتفظ بها من أجل إرسالها إلى باريس".⁷³ و دوارة للرياح (Girouette). نؤكد هنا أن اللوحة ليست من الرخام بل من الخشب كما عايناها بمتحف الجيش بباريس، ودوارة الرياح قمنا بإنجاز بطاقة فنية حولها وهي ضمن مقتنيات متحف كوندي.

لقد أهملت تازا وهجرت منذ يوم 25 ماي 1841، لتتحول بعد حوالي أربع وأربعين سنة من ذلك من مركز مقاومة إلى مركز استيطان وتم تصنيفه ضمن المناطق العسكرية لمقاطعة الجزائر، وهو غير بعيد من حصن تازا وتم ذلك سنة 1885 حسب تقارير المجلس الأعلى للحكومة العامة، في حين أن ايفر يحدد سنة 1888، واطلق عليها رسميا إسم: (Trolard- Taza) في 25 سبتمبر 1925 نسبة الى الدكتور طرولار كحاكم عام عليها.⁷⁴ وتم تخطيط عمراتها على النمط الفرنسي، لكن هانحن نرى منذ سنوات قرية مشيدة على جزء من موقعها تسمى برج الأمير عبد القادر فأعادت إليها الحياة من جديد.

الخاتمة:

يتضح لنا من العرض أعلاه بأن المعلومات التاريخية والمعطيات الأثرية التي تشكل حولها التسلسل التاريخي العام لمنطقة تازا على قلتها قد وصلتنا فقط مما كتب حول مرحلة الأمير من خلال بعض التقارير العسكرية الفرنسية ما يعني أن النصوص الأصلية حولها بخاصة المرحلة الوسيطة تبقى رهينة المصادر التي اقتبس منها كل من مارسيل ايميريت وفايست وباتورني معلومات بالغة الأهمية، ونفس المعطى حول وجهة تلك الشواهد المادية المذكورة بين ثنايا النصوص، وكل ما كتب حول حصن تازا لا يتعدى الأسطر وبوصف سطحي، أو بالأحرى تمثل شهادات عيان معظمها تم تدوينه من طرف العسكريين، وبالرغم من هذا فهي قاعدة بيانات كونها المصادر الوحيدة التي وردت إلينا من القرن التاسع عشر تفتح المجال لاحقا للبحث التاريخي والأثري للمنطقة.

تنوعت الآراء و لكنها اتفقت حول الأهمية العمرانية التي أولاها الأمير لتازا بإعادة الحياة إليها ما جعل معالم التخطيط المادي واضحة -العمارة الدفاعية -، كما تشترك تلك المعطيات أيضا حول البنية الاجتماعية لتازا والذي يحيلنا إلى المدخل لفهم التكوين الاجتماعي الما قبل الكولونيالي بتازا، ومنه طرح ملف للنقاش حول

سياسة التفكيك الاجتماعي التي مارستها الإدارة الفرنسية بها، بخاصة إذا علمنا أن هذا القانون المشيخي قد تم تطبيقه في 22 أبريل 1863، أي بعد حوالي 22 سنة من سقوط تازا وقبل إنشاء المدينة الفرنسية بها بحوالي 22 سنة تقريبا، وما ترتب عن ذلك من انتزاع الأراضي كأمالك الدولة والأمالك العمومية وأمالك البلدية، من خلال تقرير اللجنة الإدارية لدائرة مليانة وهي معطيات جديدة وجديرة بالدراسة.

من الخطأ مقارنة ما أنجزه الأمير بتازا وحتى باقي الحصون والقلاع - من مصانع ومعامل وورشات بالمصانع الأوربية، بل عمل الأمير على محاولة إدخال التقنيات الحديثة بأدوات بسيطة في الصناعة، لأن هذا المجال يحتاج إلى وقت طويل تخضع فيه التجارب إلى محاولات متكررة حتى تكفل بالنجاح، والأمير لا يمتلك تلك الأنواع من المخابر لتصفية ملح البارود مثلا، ولا مخابر كيميائية تتم فيها عملية المعالجة في ظروف خاصة من الهواء ودرجة الحرارة... إلخ، فدخل أوربا بدأت تجاربها في عصر النهضة منذ القرن السادس عشر، ولا يمكن للأمير أن يتدرك تطورها في أربعة سنوات من عمر تازا أو طيلة خمسة عشر سنة من عمر المقاومة، ومع ذلك فهي تهدف إلى الاعتماد على القدرة الذاتية للبلاد في إطار إدخال الدولة الجزائرية في طور الصناعة الآلية و التقنية الحديثة التي سادت عصره لكي لا يبقى مرتبطا بغيره.

ما حدده ايفر واسكوت من مناجم ومعادن على الخريطة الطبوغرافية كما أشرنا إليه سابقا يؤكد بأن المنطقة الواقعة جنوب شرق تازا هي منطقة تكثر فيها معادن: الكبريت والرصاص وملح البارود، وبالتالي فإبراز تاريخ منطقة لا يعني العيش في ماض مجيد بل له أهمية اقتصادية من شأنها أن تفك العزلة عن تازا الحالية وهذا ما يستوجب منا حاليا إعادة قراءة للمنطقة خلال القرن التاسع عشر بدراسات ورؤى أكثر من تاريخية أمام الفراغ التنموي الذي تعيشه المنطقة عموما.

الهوامش:

1 Ernest Ficheur, (1900). Le Crétacé Inférieur dans le massif de Matmata (Algérie), Bulletin de la Société Géologique de France, T. XXVIII, Paris. , pp 560-595

2 Belkassam B. S, (1987) Dictionnaire de la Langue Kabyle, Alger,

3 Op-cit,p T. XXVIII.

4 Vayssette, E. (1862). « de Boughar à Tlemcen», In Revue Africaine, n°06, pp 22-31.

5 Fernand Patorni, (1890). L'Emir El -Hadj Abd el Kader, règlements militaires avec appendice, Alger, Paris : Imprimerie P.Fontana ET Compagnie,p67.

6 Ernest Ficheur, op-cit, P 560.

7 Marcel Emerit, (1951). l'Algérie à l'époque d'Abd El- Kader,Paris : édi la- rose,291.

8 Georges Yver, (1912). Correspondances du Capitaine Daumas (Consul à Mascara, 1837-1839), in collection de documents inédits sur l'histoire de l'Algérie, Paris,p 192.

9- خلاصي،علي،(1981)،مهمة إلى ولاية تيارت دائرة ثنية الأحد- برج الأمير عبد القادر، الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية،وزارة الثقافة،الجزائر،ص.ص.1-12.

10 Marcel Emerit, op-cit, p285.

11 Fernand Patorni, op-cit, p67.

12 Christiane Courtois, (1955). Les Vandales et l'Afrique, Paris : éd Arts Métiers Graphiques,p79

Pierre Salama, Les vois romaines de l'Afrique du Nord, éd, Imprimerie Officielle, Alger,1951 .

13 Adrien Berbrugger, (1864). «Miliana», In Revue Africaine, n°48, pp421-433.

14 خلاصي،علي،مرجع سابق،ص3.

15 بكاي،لخضر،(2006)، موقع تازا الأثري من خلال النصوص التاريخية والحفريات الأثرية، رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة ماجستير في (الآثار الإسلامية)،معهد الآثار ببني مسوس،الجزائر.

16 بكاي،لخضر،(2000)، تازا موقع أثري ومركز مقاومة خلال فترة الأمير عبد القادر، مذكرة ليسانس غير منشورة لنيل شهادة الليسانس في (الآثار الإسلامية)،معهد الآثار ببني مسوس،الجزائر.

17 Marcel Emerit, op-cit, p285.

18 Vayssette, E,op-cit, pp 22-31

19 Fernand Patorni, op-cit, p67.

20 walsin Esterhazy, de la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, paris, 1840, p 251.

21 Georges Yver, (1912), op-cit, 192.

22 اسكوت،الكولونيل،(1981)،مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841،ترجمة وتعليق اسماعيل العربي،الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ص102،

23 Gabriel Colin, (1901). Corpus des Inscriptions Arabes et Turques de l'Algérie, Département d'Algérie, Paris : Ernest Leroux éditeur, p58.

24 Georges Yver, (1912), p298.

أنظر أيضا: بويحيوي، عز الدين، (2013)، حصن تازا أو برج الأمير عبد القادر: معطيات أثرية وتاريخية جديدة، ص 241.

25 Fernand Patorni, op-cit, p67.

26 Georges Yver, (1912), op-cit, p298.

27 Georges Yver, (1912), op-cit, p478.

28 Ibid, p43.

29 Marcel Emerit, op-cit, pp 422, 434, 439.

30 Marcel Emerit, op-cit, pp 434, 439.

31 Paul Fournier, op-cit, pp 132, 157.

32 Georges Yver, (1949-1958). Correspondance du Maréchal Valée, Paris : la- Rose, p 298.

33 اسكوت، الكولونيل، مرجع سابق، ص 129،

34 Vayssette, E. op-cit, pp 22-31

35 Westée, Avec autres Maréchaux et Généraux. (1898). Compagne d'Afrique (1835 -1848), Paris, librairie Plan, pp 235-236.

36 Bugeaud, M. (1922). Lettres Inédites duc d'Isly " 1808-1849 ", colligées et annotées par Tatta (Capitaine), Paris : Emile -Paul frères éditeurs, pp 42-43.

37 Paul Azan, (1925). L'Emir Abd-El-Kader (1808-1883), du Fanatisme Musulman au Patriotisme Français, Paris: librairie Hachette, p171.

38 Vayssette, E, op-cit, pp 23-4.

39 Paul Fournier, op-cit, pp 146-147.

40 Fernand Patorni, op-cit, p 67.

41 De-Lacroix, A. (1845): Histoire privé et politique d'abd-el-kader, Paris : chez bureau, imprimeur- éditeur, p 233.

42 Georges Yver, (1912), op-cit, pp 298, 434.

43 Paul Azan, op-cit, p171.

44 Fernand Patorni, op-cit,p 67.

45 Marcel Emerit, op-cit,p 290.

46 Georges Yver, (1912), op-cit, p434.

47 Ibid, p 478.

48 Paul Fournier, op-cit,p 147.

49 Georges Nourge, (1884).Etude sur les réguliers d'Abd el kader,Paris :Imprimerie Destouches,pp 146-147.

50 Paul Azan, op-cit, p171.

51 اسكوت،الكولونيل،المرجع السابق،ص 104,

52 Marcel Emerit, op-cit,p 288.

53 Paul Fournier, op-cit,pp 146-147.

54 Vayssette, E,op-cit, pp 23-24.

55 Marcel Emerit, op-cit,p 422.

56 Yver Georges. (1949-1958), op-cit,pp 298-299.

57 Charles-André Julien, (1964). Histoire de l'Algérie Contemporaine (conquête et colonisation -1827-1871), Paris: Puf,p 185.

58 Westée, op-cit,p 235.

59Paul Fournier, op-cit,pp 146-147. Clemend, L (2000). Souvenirs d'Algérie 1841-1842, traduit de l'Allemand par Alain Carre,Paris : éditions Bouchene

60 Georges Yver, (1912), op-cit, p 535.

61 De-Lacroix, A. (1845): Histoire privé et politique d'abd-el-kader, Paris : chez bureau, imprimeur- éditeur,p 233.

62 Charles Henry Churchill, (1991): La Vie d'Abd el kader, ex sultan des arabes de l'Algérie, Londres(1867). trad, introd et notes de Michel Habart, 4 eme éd. Alger : ENAL,p 231/

63 اسكوت الكولونيل، مرجع سابق،ص 128.

64 Vayssette, E,op-cit,pp 23-24.

65Georges Yver,. (1949-1958), op-cit,p 89.

66Ibid,p 136.

67Ibid, pp 119,301.

68 Westée,op-cit,pp 235-236.

69 Delacroix A,op-cit,p 233.

70 Ibid,p 171.

71 Emerit Marcel,op-cit, p 429.

72 اسكوت،الكولونيل،مرجع سابق،ص102,

73 Paul Azan, op-cit,p 171.

74 Robert Estoublon, op-cit,p 135.